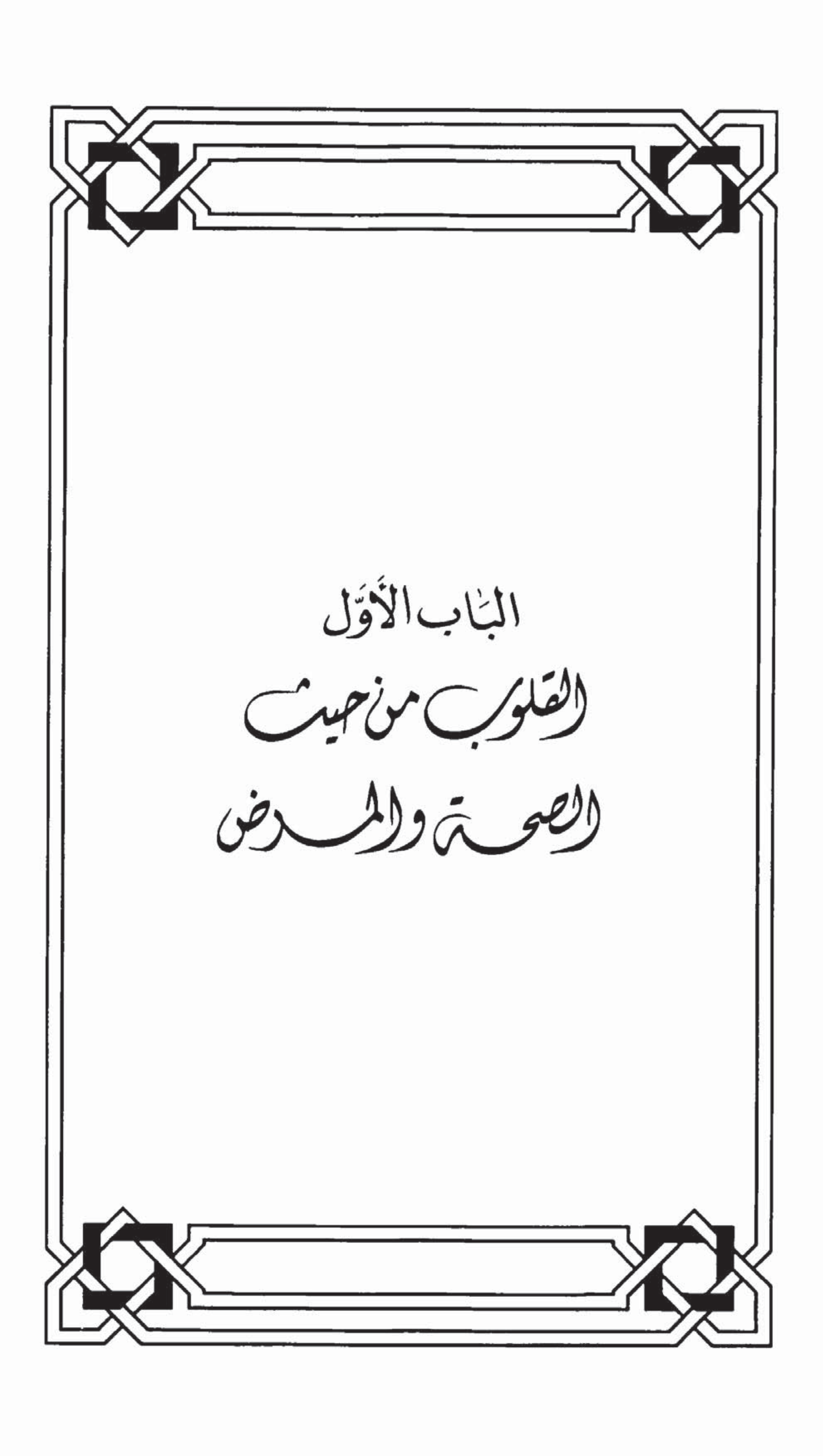


البَابُ الأَوَّل

القلوب من حيث الصحة والمرض

القلوب من حيث الصحة والمرض

مكانة القلب:

القلب هو الملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقر في الوسط.

وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية.

وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة، والكرم والصبر، والاحتمال، والحب والإرادة والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنما هي جند من أجناد القلب.

فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئاً أدته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه، إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه.

كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه.

ولهذا كثيراً ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه.

وكذلك اللسان ترجمانه.

وبالجملة: فسائر الأعضاء خدمه وجنوده، وقال النبي ﷺ (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده[2].

ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة:

[الأول: القلب الصحيح]:

فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال سبحانه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فالسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف.

فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضاً فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك:

---

(١) رواه البخاري (٥٢)؛ ومسلم (١٥٩٩).

(٢) جاء هذا الموضوع عن القلب في (مفتاح دار السعادة): ٢/ ١٦ الناشر، دار ابن عفان.

أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره.

فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق.

وهذا هو حقيقة العبودية التي لاتصلح إلا لله سبحانه وتعالى وحده[1].

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله: إرادة ومحبة، وتوكلاً، وإنابةً، وإخباتاً، وخشية، ورجاء.

وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من:

أقوال القلب. وهي: العقائد، وأقوال اللسان. وهي: الخبر عما في القلب.

---

(١) قال المؤلف في كتاب (مفتاح دار السعادة): ١/ ٢٠٠؛ ومتى كان القلب كذلك فهو:
- سليم من الشرك.
- سليم من البدع.
- سليم من الغي.
- سليم من الباطل.
وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره، فذلك يتضمنها.

وأعمال القلب. وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها.

وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا بقول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١].

أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فِعلة - وإن صغرت - إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لما فعلت؟ وكيف فعلت؟.

فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف منهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أو الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التقرب إلى الرب سبحانه. وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك[1]، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعتُه لك على لسان رسولي، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص.

والثاني عن المتابعة.

---

(١) المراد: هل فعلت هذا الفعل لمولاك.

فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص .

وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص ، وهوى يعارض الاتباع .

فهذه حقيقة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة .

[الثاني: القلب الميت]:

والقلب الثاني : ضد هذا ، وهو القلب الميت[1] الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه ، رضي ربه أم سخط .

فهو متعبد لغير الله ، حباً ، وخوفاً ، ورضاً وسخطاً ، وتعظيماً ، وذلاً . إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه .

فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه .

---

(١) ليس المراد بالموت هنا معناه الاصطلاحي ، وإنما المراد به القلب الذي أعرض عن الخير ، وأوغل في الشر حتى وصل المتعامل معه إلى اليأس منه في إمكان تقبله للخير . ومع ذلك فالإسلام لم يطرح من حسابه هذه القلوب الميتة ، بل مطلوب دعوتها إلى الخير ، فربما وضع الله فيها الحياة . والمثال على ذلك : عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة ، وقف عمر على أم عبد الله بنت أبي حثمة زوج عامر بن ربيعة ، وقد حزمت أمتعتها ، فحزن لها عمر وقال : صحبتكم السلامة ، فلما أخبرت زوجها بقوله ـ وكان غائباً ـ قال : أطمعت في إسلامه؟ قالت : نعم ، قال : فإنه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب . قال ذلك يائساً منه ، والمراد من ذكر القلب الميت في هذا الكتاب ، هو التعريف بهذا النوع وصفاته ، حتى يسارع من كان قلبه كذلك إلى تداركه إذا رغب .

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه.

فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية معمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور. ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يُصِمُّه عما سوى الباطل. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدو لمن عادت، وسِلْم لأهلها ... ومن قَرَّبت ليلى أحبّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سَقَم. ومعاشرته سُمٌّ. ومجالسته هلاك.

[الثالث: القلب المريض]:

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة. فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى. وهو لما غلب عليه منهما.

ففيه من محبة الله والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته.

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين:

داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة.

وداع يدعوه إلى العاجلة.

وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً.

• • •

فالقلب الأول، حي مخبت لين واعٍ.

والثاني: يابس ميت.

والثالث: مريض، فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

[آية كريمة تجمع القلوب الثلاثة]:

وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين هذه القلوب الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

فجعل سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلباً ناجياً.

فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي.

والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، يتأتى منه ما هُيِّئ له وخُلق لأجله.

وخروجه عن الاستقامة:

ـ إما ليبسه وقساوته. وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذكر العِنين، والعين التي لا تبصر شيئاً.

ـ وإما بمرض وآفـة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقـوعها على السداد.

فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك، تام الانقياد والقبول له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي. وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

[القلب الصحيح لا يضره الشيطان]:

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك: فتنـة لهذين القلبين، قوة للقلب الحي السليم. لأنه يردُّ ذلك ويكرهه ويبغضـه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيُخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيماناً بالحق ومحبة له، وكفراً بالباطل وكراهة له.

ولا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان.

وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبداً.

* * *